حسناء طريف
الجحيم العظيم
رواية
دار بسمة
للنشر الإلكتروني

الجحيم العظيم

اسم الكتاب: الجحيم العظيم

اسم الكاتبة: حسناء طريف

نوع العــمــل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-340-241026

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2024م / 1446ه

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Darbassma1@gmail.com

المملكة المغربية

كل الحقوق محفوظة

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

الجحيم العظيم

رواية

حسناء طريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل من يسعى في ظلام الجحيم بحثًا عن النور،

إلى الأرواح القوية التي تحملت الصعاب،

إلى الذين آمنوا بأن الفجر يأتي بعد كل ليلة حالكة،

أهدي لكم هذه الرواية،

علها تكون رفيقة دربكم نحو الأمل والحرية.

لا أعلم، لكن ما زال ذلك الطفل الحزين عالقًا بذهني. لا زلت أتذكر ذلك اليوم حين هربت إلى بهو البيت لأجعل من أشعة الشمس الساطعة فيه ملجأً لي أخبئ فيه خوفي. لقد كانت أصابعي الصغيرة ترتعش من الخوف. حاولت أن أدفيء ذلك الخوف وأنا تحت أشعة الشمس. نظرت أمامي، فكانت عمتي جالسة على ركبتيها وهي تغسل الملابس المتسخة، أو بالأحرى ملابسي التي تبولت فيها ككل ليلة، خوفًا من ذلك الشبح الذي يتفقدني كل يوم. سار كظلي، أحيانًا أكره أبي. لقد تزوج بعد موت أمي بامرأة متسلطة. لا يمضي وقت قصير حتى تنهال عليّ بكلمات قاسية. ما ذنبي؟ لماذا تعاملني هكذا؟ لماذا صرت أخاف منها كثيرًا حتى إني لا أستطيع أن أشتكي لأبي أو حتى لعمتي التي تزورنا أحيانًا لتصبح كخادمة في بيتنا، تجهز الطعام وتغسل الأواني وتنظف غرفتي المظلمة. لا أنكر أني سعيد بمجيء عمتي، فهي تعاملني كابن لها.

في المطار، أنظر إلى الخلف، أتذكر كل لحظاتي الماضية القاسية. ما زال خوفي يلاحقني من ذلك الشبح. لا أعرف هل أحلّق لبداية جديدة

أم أعود؟ سوف أترككم مع قصتي. لا أريد الشفقة من أحد، لكن في قصتي أخطاء قد تتعلمون منها، قد تكون تجربة أو مجرد كابوس لعين.

أنا اسمي يوسف، سوف أترككم مع يوسف الصغير الذي ما زال خياله عالقًا في ذهني. لن أنساه أبدًا.

نظرت إلى عمتي وهي مندهشة:

– "يوسف، ابني، ما بك؟ لماذا أنت ترتجف؟"

نظرت لها نظرة مليئة بالخوف وأنا أتلعثم في الكلام:

– "لا شيء، أريد فقط البقاء هنا والنظر إليك. ألم تنتهِ بعد؟"

نظرت إليّ العمة نظرة باهتة وقالت:

– "انتهيت، بني. سوف أذهب إلى المطبخ لتفقد الطعام". ثم أكملت:

– "هل فعلت لك زوجة أبيك شيئًا؟ أخبرني".

نظرت لها مرة أخرى وهربت مسرعًا إلى غرفتي حتى اصطدمت مرة أخرى بالجحيم. نعم، أنا أناديها بهذا اللقب.

وما إن أمسكت بي في استعداد منها لتوبّخني مرة أخرى، حـــتى دخل أبي من العمل.

رأته، فتحولت ابتسامتها الشريرة إلى ابتسامة ملاك.

نظرت إليّ وقالت:

- "ابني يوسف، انتبه، كدت أن تسقط".

أمسكني أبي وقبّل جبيني الصغير وقال:

- "بني، هل أنت بخير؟ تعالَ، فهذا وقت تناول الغداء".

نظرت له وأمسكت يده وذهبنا إلى الصالة لتناول الطعام. كانت عمتي قد أنهت تحضير المائدة.

نظر أبي إلى زوجته وعلامات الغضب تظهر على وجهه.

شعرت زوجة أبي بمدى انزعاجه فقالت:

- "لقد قلت لها لا تفعلي ذلك، لكنها لم تَأبه. حتى إن المســـاعِدة اليوم لم تأتِ لمساعدتي".

أشار لها أبي بالإيجاب، وجلسنا نتناول الطعام في هدوء.

فقال أبي:

– "اليوم سوف تأتي شقيقتك مريم من أمريكا. لقد تحدثنا معًا في الهاتف".

نظرت زوجة أبي إليّ والسعادة تظهر عليها وأتمت:

– "آه، كم اشتقت إلى ابنتي!"

نظرت إليّ مرة أخرى نظرة استهزاء وقالت:

– "ألم تشتَقْ إلى شقيقتك الكبرى؟ أتمنى عندما تكبر أن تدرس جيدًا، فبعد إنهاء الباكالوريا كن على يقين أنك سوف تذهب إلى أمريكا".

نظر إليّ أبي وقال:

– "ليس الآن، إنه ما زال طفلًا على هذا الحديث، لكن –إن شاء الله– حين يصبح شابًّا سوف يذهب إلى المكان الذي يقرره".

أنهينا الطعام وذهبنا إلى غرفة الجلوس.

نظر أبي إلى زوجته وقال لها:

– "أين جهاز التحكم بالتلفاز؟ أريد مشاهدة الأخبار".

أبي يحب كثيراً الأخبار والمواضيع القانونية، كيف لا وهو قاضٍ؟

قالت:

– "لا أعلم، ابحث جيداً".

نظرت إلى أبي وقلت:

– "لقد رأيته في المطبخ، أبي".

نظر أبي إلى زوجته وقال:

– "لقد فعلتها مجدداً. دائماً تنسينه في المطبخ".

نظرت إليّ نظرة غضب وقالت:

– "لست أنا".

ذهبت وأنا خائف وكأني اقترفت جريمة.

أخذت الجهاز وطلبت من أبي الإذن لأذهب إلى غرفتي للرســـم.
قبلني أبي وقال:

- "آه، كم تحب الرسم، فأنت في هذا السـن الصـغير ترسـم كالكبار. اذهب بني".

ذهبت إلى غرفتي وأغلقتها. أخذت أرسم إلى أن أخذني النوم.

استيقظت صباحًا، تناولت الفطور وأخذني أبي إلى المدرسة. كنت طفلًا في سن عشر سنوات، لا أحب اللعب كثيرًا. أحب الجلوس وحيدًا، حتى إن أستاذتي كانت تخبر أبي أني مريض بالتوحد. أبي لم يتقبل ذلك، لم يأخذني يومًا إلى الطبيب رغم أني رسبت مرتين، كما أني ما زلت أتبول حتى وصلت سن السادسة عشرة. كنت أشعر بالحرج من نفسي كثيرًا، وخاصة عندما أرى نظرة الاستهزاء من زوجة أبي. أحيانًا كنت أذهب إلى غرفة أمي القديمة لأخذ صورها، لكن "الشريرة" لم تكن تسمح لي بذلك. لا أعرف شيئًا عن أمي سوى أنها ماتت حين ولدت، وكأنني طفل منحوس. وخاصة عندما تأتي شقيقتي وأسمع زوجة أبي تقول لها أني منحوس وأنني السبب في موت أمي. لكن أنا لم أفعل شيئًا، ما هو ذنبي؟ لقد كنت رضيعًا فقد أمه، وعندما صرت طفلًا، تزوج أبي بحجة أني أحتاج إلى أم. لقد كانت شهوات أبي السبب. حتى إني لا أحب شقيقتي، فهي أصلًا ليست شقيقتي، إنها ابنة زوجة أبي، لكن أبي كان يعاملها معاملة خاصة، وكان يفتخر بها كثيرًا لأنها ناجحة في دراستها، رغم أنها ليست ابنته فقد ربّاها.

اليوم كان زفافها.

لم أكن سعيدًا كثيرًا، فقط كنت أنظر بصمت وأنا أسمع الزغاريد في بيتنا.

اتصل أبي ليخبرنا أنه سوف يأتي ليقلنا إلى قاعة الحفلات. في الحقيقة لم أكن أريد الذهاب، فأنا لست شخصًا اجتماعيًّا مثل أبي. لا أشبهه في الطباع، لكن أشبهه كثيرًا في شكله، فكلانا طويل القامة، غير أني أملك عيونًا حوراء وشعرًا أسود. أبي كان أشقر. أعتقد أن ملامحي تشبه أمي، فهي كانت ذات ملامح عربية، عكس أبي الذي كانت ملامحه غربية. كان أشقر وعيونه ملونة. لكن إصرار عمتي جعلني أذهب لأرى هذا الزفاف.

كان زفافًا مكتظًّا بالناس. الكل يرقص، ونساء يتغامزن وينظرن إلى مريم. في الحقيقة، كانت جميلة جدًّا. لا أعرف، أحيانًا أشعر أنها طيبة، لكنها لم تجعلني يومًا أشعر أنها تحبني، رغم أننا رُبينا معًا. عندما كنت طفلًا، هي كانت مراهقة.

الكل كان سعيدًا إلا أنا. كنت قلقًا، شعرت بمعدتي تتمزق وكأني جالس فوق موقد النار.

جلست زوجة أبي أمامي. لا أعلم، إلى الآن لا أستطيع أن أطيل النظر في عينيها. كل هذه السنين وأنا أخشى النظر إليهما. هل أنا خائف منها لهذه الدرجة؟ زرعت الخوف في نفسي وقلبي. أبعدت النظر، كيف لا وأنا أمام هذا الجحيم؟ أحيانًا كنت أقول ليتها ماتت وتحررت منها. كنت أنتظر موتها بلهفة شديدة، كان موتها سوف يخلصني من هذا العذاب.

معاملتها القاسية تركت بصمة قوية في نفسي. لم تكن تضربني، لكن كانت كلماتها القاسية تتساقط عليّ في أول فرصة يكون فيها أبي خارج البيت. لماذا تكرهني؟ ماذا فعلت لها؟

وأخيرًا، انتهى هذا الزفاف، والكل ذهب في حال سبيله. نظرت إلى سيارة أبي، فتحت الباب، ومن تعبي لم أنتبه أنها كانت تجلس في الخلف. جلست، كنت متعبًا، أريد فقط النوم. ما إن شعرت بوجودي حتى دفعتني وقالت:

- "بني، اذهب واركب في سيارة الأجرة، سوف تأتي شـــقيقاتي. أنت تعلم نحن نساء، هيا اذهب".

نظرت إلى أبي الذي لم يصدر أي ردة فعل. خرجت من السيارة.

نظرت إلى الطريق، شعرت أني منبوذ، أني لا أنتمي لهـــم أبـــدًا، وكأني جحيم، الكل يريد الخلاص مني. شعرت أني لا أنتمي. جفـــت الدموع في جوفي، وتوقف الزمان والمكان في حياتي. ليتها لم تكن زوجة أبي. سوف ينتهي هذا السجن، سوف أرحل. هل تنتظـــرني الحيـــاة أم ينتظرني الرمس؟

ما زلت أنظر حتى نادتني عمتي:

- "بني، ما بك؟"

نظرت لها وقلت:

- "أنا متعب".

قالت:

- "حسنًا، سوف نذهب معًا".

وصلنا إلى البيت، ذهبت إلى غرفتي. كم أكره أن أنام، فما زلت أتبول. ولم أخبركم أيضًا أن هذا العام رسبت، وأبي لم يعـد يـرغمني، وكأنه فقد الأمل فيّ. لا شيء أفرغ فيه حزني سوى الرسم.

في اليوم التالي، استيقظت وما زال ذلك الألم في معدتي.

ما زلت أشعر أن قلبي يشتعل نارًا.

ذهبت إلى مكتب أبي.

طرقت الباب، وكانت زوجة أبي معه. نظرت لها، وهـذه المـرة نظرة حقد، وأمرتها بالانصراف. وأتممت:

- "أريد أن أتحدث إلى أبي".

نظرت إليّ نظرة استغراب وردت:

- "حسنًا". ثم قالت:

- "ليتك استيقظت مبكرًا لتودع أختك. لقد ذهبت مع زوجها إلى أمريكا، لن تراها مجددًا".

نظرت لها ولم أكترث. جلست في مكانها وقلت:

- "أبي، أعتقد أنه يجب أن أذهب إلى الطبيب. لا أشعر أنني بخير، أشعر بألم في معدتي".

أشار إليّ أبي بالإيجاب وقال:

- "هيّا، جهّز نفسك، سنذهب الآن".

ركبت في السيارة التي طُردت منها ليلة أمس، وأنا أنظر إلى الطريق في صمت مهول. وصلنا إلى الطبيب.

جلسنا ننتظر بعد أخذ الموعد.

ما زلت أنظر إلى الناس تدخل وتخرج، حتى جاء دوري. دخلت، وبعد المعاينة، قال الطبيب لأبي أن أقوم ببعض التحاليل.

انصرفنا، وكان المختبر قريبًا من عيادة الطبيب.

جلست، وبعدها جاءت فتاة في مثل سني، نظرت إليّ مبتسمة وقالت:

- "عافاك الله، أخي، هيّا أغلق يديك على شكل قبضة".

فعلت ما قالت، أدخلت الإبرة في وريدي وسحبت منــه الــدم، وقالت:

- "انتهينا، لكن لا تذهب، فبعد نصف ساعة ستخرج النتيجة".

جلسنا مرة أخرى ننتظر، حتى أخــذ أبي التحليــل وذهبنــا إلى الطبيب. من حسن حظي أنني لم أجد شخصاً. دخلنا، فــتح الطبيــب التحليل وقال:

- "الحمد لله، بني، أنت لا تشتكي من شيء".

نظرت له وقلت:

- "لا، لدي ألم في معدتي، وكذلك أشعر أن قلبي سوف ينفجــر، لا أشعر أنني مرتاح".

نظر وقال:

- "بني، أعتقد أن هذا بسبب عامل آخر. أعتقد أن هذا مــرض نفسي. يجب أن تذهب إلى طبيب نفسي، لأن بدنك لا يشــتكي مــن شيء".

استغرب أبي، لكني لم أكن مثله.

تلك العقد النفسية التي زرعتها زوجته بدأتْ بدورها تظهر الآن.

خرجنا بعد أن شكر أبي الطبيب.

وقال:

– "غداً سوف نذهب. سامحني بني، العمل جعلني أبتعد عنـــك. كيف لا وأنت ما زلت تتبول في هذا السنّ".

قالها، وقد شعرتُ بالخجل والخزي من نفسي، وطلبت من أبي ألا يخبر هذا لزوجته. شعر بمدى خجلي وقال:

– "لا تقلق بني".

في اليوم التالي، ذهبنا إلى الطبيب.

دخلت وأنا خائف أرتجف. جلست، نظر إليَّ الطبيب وقال: "ما بك يا بني؟ ممَّ تشتكي؟"

أخبرته أنني ما زلت أتبول وأنني أشعر بآلام في المعدة، وبالخوف. وأحيانًا أرى كوابيس ولا أستطيع النوم إلا وغرفتي مغلقة، كما أنني أحيانًا أتحقق من باب الغرفة للتأكد من إغلاقه، رغم أنني أغلقته مسبقًا.

فقال: "حسنًا، هل تعيش مع والديك؟"

فأجاب أبي: "نعم".

نظرت إلى أبي وقلت: "لا، فقط مع أبي، لكنه متزوج".

فقال الطبيب: "حسنًا، كيف تعاملك زوجة أبيك؟"

نظرت وصمتُّ، وهنا طلب الطبيب من أبي الانصراف.

نهض أبي، وبقيت مع الطبيب. فقال: "أخبرني يا بني، لكي أتمكن من مساعدتك".

نظرت له وكأنه عزرائيل سوف يقبض روحي. وقلت، وكان الخوف يملأ قلبي وكأنها هنا معنا ستسمع. لكني تحديت نفسي وقلت: "لا، كانت قاسية. كانت دائمًا تقول لي كلامًا يجرحني، حتى في طفولتي. لم تكن تتركني إذا أخطأت خطأً بسيطًا، كانت تنهال عليّ بكلمات قاسية، حتى جعلتني بلا شخصية. لم أعد أعرف من أنا. لم أكن أستطيع إخبار أبي، كنت ضعيفًا جدًّا أمامها".

فقال: "وهل أمك متزوجة أيضًا؟"

قلت: "لا، لقد توفيت حين أنجبتني".

نظر إليّ وقال: "أعتقد أن ما أصابك في معدتك هو القولون العصبي، كما أنك ذكرت أنك تغلق غرفتك وتفتحها مرة أخرى للتأكد، وهذا هو الوسواس القهري. أما بالنسبة للتبول، فهو ناتج عن التوتر، لأن التحاليل التي أحضرتها تثبت أنك لست مصابًا بمرض في المسالك البولية، ولا تعاني من مرض السكري. بني، سوف أصف لك هذا الدواء، تناوله في الليل لأنه سيجعلك تشعر بالنوم. لا تتناوله أثناء القيام بأي نشاط".

طلب الطبيب دخول أبي مرة أخرى من مساعِدته في الهاتف.

ما إن دخل أبي، حتى أخبره أني أشتكي من الوسواس القهري والقولون العصبي، وأنني لا أشتكي من السكري. وقال إن هذا ناتج عن صدمة نفسية رافقتني منذ الطفولة. يجب أن أتناول الدواء، وأخبرني الطبيب أنه سيتابع حالتي بعد شهر.

خرجنا، وأوصلني أبي إلى البيت، ثم ذهب لإحضار الدواء.

القولون العصبي ترجع أسبابه إلى التوتر والقلق، وخاصة التعرض لصدمات نفسية في الطفولة، مما يسبب اضطرابات نفسية، وتوترًا شديدًا، عدم ارتياح، قلقًا، وألمًا جسديًّا، وأحيانًا يؤدي إلى الاكتئاب. (اقتباس)

دخلت مرة أخرى إلى غرفتي، التي لم أعد أخرج منها إلا عندما يناديني أبي لتناول الطعام. قال لي: "بني، لا تنسَ تناول الدواء".

أشرت له بالإيجاب.

وبعد إتمام الطعام، تناولت حبة الدواء. لقد وصف لي الطبيب لائحة من الأدوية النفسية ومضادات الاكتئاب لعلاج الوسواس القهري.

ويُعد الوسواس القهري ناتجًا عن القلق، فهو مجموعة من الأفكار غير المنطقية التي تولد لدى الشخص المريض أفكارًا وسواسية، مثـــل غسل اليدين عدة مرات أو التحقق المستمر من إغلاق الغرفـــة. كـــل هذه المخاوف تعوق حياة المريض وتجعله يغوص في أفكار لا أساس لها من الصحة. كما أن من مضاعفاته الاكتئاب. إذ توجد علاقة مشتركة بين الوسواس القهري والقولون العصبي، حيث يسبب القولون أضرارًا جسدية تصاحبها أمراض نفسية، مثل الوسواس القهري، وكل هـــذا يعود إلى صدمات واضطرابات نفسية في الطفولة. (اقتباس)

تناولت الدواء، وما هي إلا دقائق حتى شعرت بضبابية في الرؤية، والنعاس الشديد، وجفاف في فمي. نهضت من فراشي وأنـــا أمســـك بالجدران وكأني مخمور. تناولت كأس ماء، وشعرت وكأني في عـــالمي الخاص. شعرت بالاسترخاء، ثم أخذني النوم.

مرت الشهور وما زلت على نفس الحال، لا أفعل شيئًا سوى أنني أستيقظ لأمضي يومي في غرفتي. أحيانًا أرســـم، ولكـــن مـــن شـــدة الاسترخاء أصبحت أكثر كسلًا. اعتدت تناول مضادات الاكتئـــاب، فقد كانت تأخذني إلى عالم خاص أشعر فيه بالسعادة، لكنـــني كنـــت

أشعر بعدم القدرة على القيام بشيء، وكأنني مخدَّر. قررت التوقف عن تناول الدواء والعودة إلى حياتي العادية بالرسم والدراسة.

وأخيرًا وصلت إلى المرحلة الجامعية بعد عناء طويل مع المـرض. كنت أعود إلى الطبيب كل ثلاثة أشهر، ولكن بعد أن شعرت بـزوال آلام معدتي وتخفيف خوفي، توقفت عن تناول أدوية الاكتئاب وبدأت أركز على الرسم. زوجة أبي لم تكن تكلمني، وأنا أيضًا. كنـا نجتمـع فقط عند تناول الطعام. بعد بضعة أيام من التوقـف عـن الأدويـة، شعرت بغضب شديد، وكأنني مدمن على المخدرات. كنت في قمـة الغضب وذهبت إلى غرفة زوجة أبي، وكانت نائمة. في لحظة، رغبـت في خنقها للتخلص من شبحها الذي ما زال يسيطر علـى ذاكـرتي، لكنني تراجعت في اللحظة الأخيرة.

شعرَتْ بوجود شخص ما، واستيقظت لتنظر إليَّ بغضب وتقول: "ماذا تفعل أيها المجنون هنا؟"

لم أتحمل أن تصفني بالمجنون، فكسرت النافذة بكأس زجاج كان فوق الطاولة. لم أشعر بنفسي حتى بدأت أصرخ وأدمر كـل شـيء أمامي. هربت زوجة أبي من الغرفة وهي تصرخ: "مجنون! مجنون!"

كان أبي في الجوار، وسمعها تقول:

"محمد، أرجوك! لا أستطيع التحمل، ابنـــك مجنـــون، كـــاد أن يقتلني!"

اقترب مني أبي وقال: "ماذا فعلت، بني؟ ما بك؟ ألم أقل لـــك ألا تقطع أدويتك؟"

قلت له: "يجب أن ترحل هذه المرأة، أبي! لقد دمـــرتني، دعهـــا تذهب".

قال: "لا، أرجوك، اهدأ. غداً سنذهب إلى الطبيـــب". ومـــا إن سمعت كلمة "الطبيب" حتى فقدت أعصابي وبدأت أصرخ مثل ثـــور هائج. اتصل أبي بعمتي لتقنعني بالذهاب إلى الطبيـــب، وبعـــد عـــدة محاولات لم أرْضَخْ للأمر.

نمت بعد صراع طويل مع نفسي.

استيقظت صباحًا لأجد أن أبي قد اتصل بالشرطة بعد أن قالت له زوجته أن يأخذني إلى مستشفى الأمراض العقلية، قائلة إن حالتي لا يمكن أن يعالجها الطبيب.

ذهبت بعد صراخ طويل، لأجد نفسي في المستشفى، حيث أعطوني مهدئًا لتهدئتي.

ما إن بدأ مفعول الحقنة حتى شعرت بثقل في رأسي، وأخذني النوم.

استيقظت مجددًا لأجد نفسي بين جدران المستشفى. هل أنا حقًّا مجنون؟

لماذا يا أمي تركتِ الحياة وأنا ما زلت في أحشائك؟ تركتني طفلًا بريئًا في مخالب الأسد، لماذا؟ هل كنتُ طفلًا سيئ الحظ بالنسبة لكِ؟ تركتني أعيش في جحيم لم أعرف فيه معنى الخطأ. لم أعرف كيف أكون طفلًا عاديًّا، كنت أخطئ فتنهال عليّ بالكلمات القاسية، حتى أصبحت شابًّا بلا شخصية. هل تصدقين يا أمي أنني لم أتعلم كيف أحب أحدًا؟

عندما تتألم كثيرًا تشعر وكأنك على وشك فقدان أنفاسك. تشعر أن هناك جرحًا عميقًا يعتصر قلبك الصغير. تشعر باليأس من كل شيء، وأن حياتك سوف تنتهي. جرحك أصبح أكثر عمقًا مما سبق. إنه شعور لا يُطاق، والأسوأ أن لا أحد يفهمك. متى ستتخلص من هذا الألم العميق؟ إنه لا يُحتمل، ينزف في كل لحظة ويجعلك منهارًا. تتمنى الموت لتنجو من هذا الألم الذي لا يرحم. تشعر أن الحياة قد قست عليك كثيرًا، وجعلتك تفقد كل شيء. أصبحتَ كفأر تجارب، ليس لك أي قيمة. لا أحد يفهمك. تريد أن تتغير، ولكن الألم يجعلك تفقد الأمل في كل مرة تحاول فيها. كل لحظة تكره وجودك هنا، تريد فقط الرحيل دون عذاب. يصبح الموت أرحم لك من هذا الألم. إنه شعور يفوق الخيال. كيف لك يا نفسي أن تتحملي هذه المرارة؟ كيف ذلك؟ أعتقد أنني أفقد السيطرة. أعتقد أن جرعة الموت هي اللذة الوحيدة في هذه اللحظة. كم أنا مشتاق أن ينفصل جسدي عن روحي، وكم أريدها أن تتحرر من هذا الجسد الذي لا قيمة له أبدًا. أريدها أن تحلق عاليًا وتتركه في القبر يجف وحيدًا، كما اعتاد. لكنه الآن سيتحرر من كل هذا العذاب.

"من الصعب على شخص غيري أنْ يعرف عمق الألم الذي أعانيه، وذلك لسبب بسيط هو أنه ليس أنا بالآخر".

ديستوفسكي

بعد مرور شهر من وجودي في المستشفى، قرر الطبيب إخراجي بعد أن تأكد أنني لست مجنونًا، وأن ما حدث لي كان نتيجة ضغوط نفسية. قال إنني لا أستحق أن أكون هنا، فأنا لست مجنونًا، وإنما أُصبت بانهيار عصبي. وأكد لي أنه لا يجب أن أقطع الدواء، خاصة أنني أعاني من الوسواس القهري.

أشرت له بالإيجاب، وذهبت مع أبي بعد أن ودعني الطبيب، إذ قرر أبي أن أعيش مع عمتي. في الحقيقة، كنت سعيدًا، لأنني لن أرى تلك المرأة مرة أخرى.

ذهبت للعيش مع عمتي.

كانت تعيش وحيدة، فهي لم تتزوج أبدًا. دخلنا إلى بيتها الذي كان في حي شعبي. كان بيتها بسيطًا جدًّا، لكنني شعرت فيه بالأمان والسعادة.

كان بالقرب من بيت عمتي مسجد، وكنت أسمع أذان الفجر كل يوم. في الحقيقة، شعرت أن قلبي يرتاح لهذا الصوت. قلت لنفسي: "لم أصلِّ يومًا في حياتي. يا إلهي، كم أنا مقصر في عبادتي!"

قررت الذهاب في اليوم التالي إلى المسجد، والاستماع إلى صوت المؤذن. كان يشعرني براحة لم أشعر بها منذ سنوات.

صليت مع الناس، ومرت الأيام وأصبحت مواظبًا على صلاتي والاستماع إلى القرآن الكريم، خاصة سورة البقرة، التي وجدت فيها راحة ليس لها مثيل.

دخلت إلى بيت عمتي، وكانت تبكي بحرقة. نظرت إليها وقلت: "ماذا بكِ؟ ماذا حدث؟"

نظرت إليَّ وقالت: "بني، لقد تُوفي والدك".

انصدمت من كلامها، فحتى لو كان بعيدًا عني، لكنه كان يحبني. أبي كان إنسانًا خجولًا وطيبًا جدًّا، لذلك سيطرت عليه زوجته، فقد كان ضعيفًا أمامها. ذرفت دمعة من عيني وعانقت عمتي، وكان الصمت سيد المكان، لا تسمع سوى صراخات عمتي.

ذهبنا إلى بيت أبي ووجدنا زوجته تبكي بحرقة. لا أعرف هل كانت حقًّا تحب أبي أم أن هذا مجرد تمثيل أمام الناس. كان الناس في الصالة يستمعون إلى القرآن الكريم في خشوع، وبعد أن خرج طبيب

التشريح، غسلوا جثمان أبي الذي أصبح نحيفًا. نظرت إليه للمرة الأخيرة، فقد كان وجهه شاحبًا جدًّا ولم أستطع أن أطيل النظر إليه.

بعد الصلاة عليه في المسجد، رافقت الناس إلى الروضة لدفنه. كنت صامتًا، وكأنني لا أشعر بشيء، أو بالأحرى لم أصدق أن أبي تُوفي وتركني. كنت أسمع فقط صوت التعازي.

ومع حلول المساء، سمعت أصوات الضحك في الصالة التي كان الناس يبكون فيها في الصباح.

أمرٌ عجيب، كيف يُنسى الإنسان بهذه السرعة؟ لكنني رأيت الحزن في عيني زوجته، لقد كانت حزينة حقًّا.

بعد أن انصرف الناس، ذهبت أيضًا مع عمتي إلى بيتها. دخلت مرة أخرى إلى غرفتي وحاولت أن أرسم صورة لأبي، فقد كنت أحبه كثيرًا. نظرت إلى صورته التي كانت في هاتفي، وأخذت أبكي وأشهق، وكأن كل الدموع التي خبأتها عادت لي. بكيت كثيرًا.

وقلت في نفسي: "لا يجب أن أبقى هكذا، أنا الآن في سن الرابعة والعشرين. إلى متى سأبقى بدون رغبة؟" أحيانًا كنت أفكر في الانتحار، لكن بعد أن استقمت في عبادتي، عاد الاطمئنان إلى قلبي.

قررت، بعد عدة أشهر من موت أبي، أن أعمل. عملت في مقهًى بالقرب من حي عمتي، رغم أن الأجر كان زهيدًا مقابل العمل.

في الليل، عدت إلى البيت بعد انتهاء العمل، حتى طرقت عمتي باب غرفتي وقالت: "أعتقد يا بني أنك يجب أن تترك ذلك العمل. لا تنسَ أنك الوريث الشرعي لأموال والدك، فمريم ليست شقيقتك".

نظرت إليها وقلت: "ماذا سأفعل؟" فقالت: "يجب أن تطالب بحقك. لماذا تترك بيتك؟ لقد ترك والدك مزرعة صغيرة والفيلّا التي تعيش فيها زوجته وشقة أيضًا، بالإضافة إلى بعض المال في البنك. إنه من حقك، بني، أن تقوم بمشروع أفضل لك من هذا العمل".

نظرت إليها وقلت: "كلامك صحيح. غدًا سأذهب وأكلم زوجة أبي، لكنني، يا عمتي، بعد الحصول على المال، لن أبقى هنا. أريد أن أذهب إلى كندا".

نظرت عمتي وقالت: "ماذا ستفعل هناك، بني؟"

فقلت: "لا أعلم، لكن أريد بدء حياة جديدة. لا أستطيع البقاء هنا، لدي ذكريات سيئة. أريد أن أتمم دراستي في كندا".

فقالت: "حسنًا، بني، كما تريد".

ذهبت إلى بيتنا، طرقت الباب، وكانت زوجة أبي قد تركت اللباس الأبيض بعد انتهاء العدة، وكانت تظهر عليها علامات الحزن.

فقلت لها: "أعتقد أنك تعرفين لماذا أنا هنا". فقالت: "نعم، لقد تحدثت معي عمتك. سأترك لك المزرعة والشقة، وسأعطيك جزءًا من المال يكفيك للدراسة في كندا، وأيضًا يمكنك بدء مشروع إن أردت، لكن هذا البيت أملك فيه ذكريات مع والدك، فقد كنت أحبه كثيرًا لدرجة أنني كنت أغار منك".

نظرت إليها وقالت: "أعلم يا بني أنني كنت قاسية معك كثيرًا، لكنني نادمة. لقد تُوفي زوجي وتُوفيت مريم أيضًا في حادث سير مع ابنها وزوجها".

نظرت إليها وقلت: "مريم ماذا؟!"

نظرت إليَّ وقالت: "أعتقد أن هذا عقابي، أنا أستحق ذلك".

لا أنكر أنني تعاطفت مع مريم، فبالرغم من ذلك، هي أيضًا كانت ضحية أمٍّ متسلطة.

نظرت إليها وأكملت قائلًا: "حسنًا، أصلًا في هذا البيت لا أملك سوى ذكريات حزينة. المهم، من اليوم ستتعاملين مع المحامي. لا أريد رؤيتك مرة أخرى أبدًا".

خرجت مسرعًا، وحتى الآن لا أستطيع إطالة النظر إلى وجهها.

بعد بضعة أشهر

اليوم كانت الشمس مشرقة، فقد كنت دائمًا أحب الشمس. كنت أختبئ تحت أشعتها، فقد كانت تجعلني أشعر بالدفء الداخلي الذي افتقدته. لم أكن أريد أن أترك عمتي، لكن بعد كل هذه السنوات شعرت أنني تحررت من جحيم تلك المرأة المتسلطة.

جمعت حقيبتي وعانقت عمتي التي كانت تبكي، فأنا أحبها كثيرًا.

وصلنا إلى المطار، عانقتها وذهبت.

بعد انتهاء إجراءات المطار، جلست أنتظر الطائرة. جلست بجانبي فتاة، ولم ألاحظ وجودها بالقرب مني. نظرت إليها، فرمقتني بابتسامة.

بعد مرور ساعة على الإجراءات، حان وقت ركوب الطـــائرة. انفتح الباب وأنا على الرصيف. شعرت بسعادة، أخيرًا سأحقق حلمي وأتمم دراستي.

اتخذت مقعدي، وكانت الصدفة أن تجلس تلك الفتاة مرة أخرى بجانبي. نظرت إلى النافذة، وبعد لحظات قليلـــة، حلقـــت الطـــائرة، وحلقت أيضًا معها. لا أعرف إنْ كنت سأعود أم لا، لكن ما أعرفـــه هو أنني تخلصت من ذلك الجحيم، وأن روحي تحررت أخيرًا.

انتهى

بقلم: حسناء طريف

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاهم، وإيصال أصواهم وتغريداهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

روابط مهمّة لكل كاتب، ستساعدك على تنمية مهاراتك الكتابية.

شروط النشر في دار بسمة للنشر الإلكتروني

اشترك في النشرة البريدية الآن

اسأل سؤالك هنا

الجحيم العظيم

الآخر جحيم مهما فعلت سوف يظلّ يحاربك إلى آخر نفس، إلى آخر رمق من الحياة، يجعلك تفكر هل هناك خطب ما؟ ماذا يحصل لي؟ هل أنا جسد بلا روح؟ لماذا كل هذا الحقد؟ لماذا تجعلوننا نقع في إثم الخطأ رغم أننا لا نقصده؟

تجعلوننا نحارب أنفسنا رغما عنا، أنتم جحيم يجب أن ينتهي، تدمرون الناس هكذا بدون قصد أو بقصد. الحياة لا تريد منا الصفاء، نحن الملائكة لا نستطيع العيش في جحيم الشياطين إلى الأبد.

دار البسمة للنشر الإلكتروني

bassmabook

00212771814934

bassmabook@gmail.com